

# ابن زمرك الأندلسي حياته وأدبه

د . عمر موسى باشا

أستاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية  
جامعة دمشق

عيسى فارس

طالب دراسات عليا  
كلية الآداب والعلوم الانسانية  
جامعة تشرين

يمثل شعر ابن زمرك جانباً هاماً من النشاط الادبي في امانة غرناطة ، كما يعطي صورة واضحة عن طبيعة الحياة الاندلسية بجوانبها المتعددة ، ولكن معظم الدراسات الحديثة أهملت هذا الشاعر اهمالاً كبيراً ، واكتفى بعضها بذكر تعريف موجز عن حياته ونشأته ، ولم يكن ابن زمرك على جودة شعره ونصاعة عبارته وسعة اطلاعه ، إلا واحداً من أعلام الأندلس الذين لم ينالوا حظهم من العناية والاهتمام .

انطلاقاً من ذلك كله ، اخترت هذا البحث موضوعاً لدراستي التي آمل أن تكون محاولة جادة من شأنها أن تكشف الحجب عن الجوانب العامة في حياة هذا الشاعر .

محمد الخامس وابن خلفه يوسف الثاني ، ويعرف باسم أسرته « ابن الاحمر » وقد عثر على هذا الكتاب مخطوطاً في المغرب ، وكدنا نفقده قبل ان يبصر النور ، لولا أن المقرئ التلمساني المؤرخ المجتهد ، عوضنا عن المصدرين الاول والثاني ، وذلك عندما جمعهما في كتابيه الكبيرين « أزهار الرياض » وهو ترجمة للقاضي عياض السبتي ، و « نفح الطيب » وهو ترجمة للسان الدين بن الخطيب . هذا الى جانب أخبار متفرقة ، بعضها ذو أهمية كبرى ، مثل تعليقات ابني الحسن علي بن اسان الدين بن الخطيب ، على ترجمة ابن زمرك ، في الكتاب والد ، « الإحاطة » .

— نشأته الأولى ، اسمه وكنيته ولقبه :

يدعى شاعرنا أبا عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن زمرك ، بفتح الزاي والراء أو ضمهما ، فكلا الرسمين يوجد في المصادر المختلفة التي تحدثت عنه ، مع غلبة الفتح ، وهو — فيما أرى — الأصح . ويتسع الأمر لاحتمالين آخرين : زمرك « بفتح الزاي وضم الراء » أو زمرك « بضم الزاي وفتح الراء » . وبعض المحدثين تعودوا أن يضعوا فتحة فوق « الزاي » مع إهمال « الراء » .

مصادر سيرته :

إن المصادر التي بين أيدينا لدراسة ابن زمرك وإنتاجه الأدبي ، يمكن أن تنحصر في البداية في مصدرين : الأول ترجمة ابن زمرك التي ضمها لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة » مع مختارات من الأعمال الشعرية الأولى لشاعرنا .

وهذا المصدر يفيدنا في دراسة ابن زمرك شاباً فحسب ، لأن ابن الخطيب انهى مؤلفه « الإحاطة » في شعبان من عام ٧٧٠ هـ ( ١٣٦٩ م ) ، عندما كان الشاعر ، موضع دراستنا ، في الخامسة والثلاثين من عمره . والمصدر الثاني كتاب كامل وقفه على حياة ابن زمرك أمير من بني الاحمر ، وهو حفيد السلطان

وفيما عدا ذلك ، فكل المصادر العربية الأخرى عارضة ، على الرغم من أننا يمكن أن نلتقط بين النصوص التاريخية ، بعض الأخبار المتناثرة عن ابن زمرك هنا أو هناك . أما بقية التراجم فليست بذات أهمية ، وقليلة الجدوى ، كترجمة ابن القاضي<sup>(١)</sup> له في كتابه « جذوة الاقتباس » لأنها مجرد نسخ لما في كتاب « الإحاطة » لابن الخطيب وشيء مثل هذا يمكن ان يقال عن ترجمة جلال الدين السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » ، وهذا ما يمكن قوله في بعض الاخبار المتفرقة التي وردت في تاريخ ابن خلدون ، والتراجم الأوربية عنه شحيحة أيضاً ، كالترجمة القصيرة

التي أوردها له مارتين هارتمان في مؤلفه المعروف عن الموشحات ، وهذا الكتاب موجود في المعهد الفرنسي العربي في باريس ، وهناك إشارة عارضة في كتاب بروكلمان « تاريخ الأدب العربي » وهناك أيضاً دراسة مختصرة عن ابن زمرك للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير ، لم أتمكن من العثور عليها .

ولعل أهم الدراسات الأوربية عن ابن زمرك تلك الخلاصة الموجزة التي وردت في كتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث في كتابه « مع شعراء الأندلس والمنتبي » وتكاد هذه المؤلفات أن تكون أهم المصادر الأدبية والتاريخية التي ورد ذكر ابن زمرك فيها . وقد قدمت هذه المصادر والمراجع على قلتها مادة أدبية غزيرة ، جعلت من ابن زمرك آخر شاعر فحل يتربع على عرش الشعر في الأندلس .

— ينحدر ابن زمرك من أسرة فقيرة ، تنسب أصلاً إلى شرق الأندلس ، ثم انتقلت إلى غرناطة عندما استولى الفرنجة على معظم مدن الأندلس واتخذت لها مسكناً في ريش البيازين ، وقد ولد الشاعر في هذا الحي ، في الرابع من شوال لعام ٧٣٣ هـ ( ٢٩ حزيران ١٣٣٣ م ) وقد كانت ولادة ابن زمرك في العام نفسه الذي صعد فيه إلى العرش أبو الحجاج يوسف الأول .

— وكان أبو الشاعر يعمل حداداً في سوق البيازين ، ومكاري حمير ، وقد مات بعد أن ضربه ابنه ضرباً قاسياً<sup>(١)</sup> ، وهي رواية يجب أن نأخذها بحذر شديد لأن مصدرها هو أبو الحسن علي بن لسان الدين بن الخطيب ، إذ كان لديه أسباب قوية للنيل من ابن زمرك والتشهير به .

لقد أمضى شاعرنا طفولته الأولى في الأعوام الحاسمة من تاريخ الدولة النصرية ، ففي ٧ جمادى الأولى من عام ٧٤١ هـ ( ٣٠ تشرين أول ١٣٤٠ م ) ، وقد بلغ السابعة من عمره ، جرت معركة طريف<sup>(٢)</sup> الشهيرة بـ « سلاو » في المصادر الأجنبية ولكن هذه الهزيمة الإسلامية التي نراها نحن اليوم في ضوء إمكاناتنا التاريخية ، حاسمة في تقرير مستقبل الحكم العربي الإسلامي في مملكة بني الأحمر غرناطة ، لم يكن يعتبرها أهل غرناطة في تلك الأيام كذلك

١ — نفح الطيب : ١٠ ، ٢٠ .

٢ — تطلق عليها المدونات العربية اسم موقعة « طريف » وتسميها المدونات الأجنبية معركة « سلاو » لأنها جرت قريباً من نهر صغير يحمل هذا الاسم وكانت المعركة بين كاثوليك العالم تقريباً بقيادة الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة من جانب ، وبين مسلمي الأندلس وبعاونهم مسلمو المغرب ، بقيادة السلطان أبي الحسن ملك المغرب ، والسلطان أبي الحجاج يوسف الأول سلطان غرناطة من جانب آخر ، وجرى أحداثها في شهر جمادى ١ عام ٧٤١ هـ ( تشرين أول ١٣٣٤ م ) وقد كانت الدائرة في هذه المعركة على المسلمين ، وسقطت بنتيجتها مدنتا صريف والجزيرة الخضراء .

وهو أمر منطقي ، ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع أبو الحجاج يوسف الأول بتصرفه السديد والمفيد إلى أقصى حد ، أن يخفف من نتائجها المباشرة ، وأظهر أنه سياسي محنك ، وإداري ماهر ومشرع حكيم ، ونصير متحمس للعلوم والآداب ، وإليه يرجع الفضل في إنشاء عدد من المباني في الحمراء ، من بينها باب الشريعة وفتح المدرسة الغرناطية في محرم ٧٥٠ هـ ( نيسان ١٣٤٩ م ) على نمط المدارس المشهورة في الجانب الآخر من مضيق جبل طارق .

نشأ ابن زمرك في ظل هذه الظروف ضئيلاً كالشهاب يتوقد ، وكان مبكر الذكاء سريع الفهم ، اشتغل أول نشأته بطلب العلم والمعرفة ، والدأب على القراءة وملازمة حلقات الدرس وكان في طليعة الذين اختلفوا إلى المدرسة الغرناطية التي انشئت من وقت قريب .

#### ابن زمرك الوزير الأول :

شغل ابن زمرك منصب الوزير الأول في مملكة غرناطة منذ مغادرة لسان الدين بن الخطيب لبلط بني الأحمر عام ٧٧٣ هـ ( ١٣٧١ م ) ، وبقي في منصب الوزارة حتى وفاة الملك محمد الخامس عام ٧٩٣ هـ ( ١٣٩١ م ) ، كانت حياته خلال هذه الفترة وهو في أوج مجده السياسي والأدبي ، تبدو هادئة مطمئنة خالية من المنافسين والخصوم ولا نستطيع هنا أن نلّم بها تفصيلاً ، لأن اقتحام عالم السياسة المعقد والعلاقات السياسية المتشابكة والأحداث الحربية لتلك الأيام المضطربة القلقة ، يجعلنا ننحرف بعيداً عن موضوع البحث .

ولكن يجب أن نفترض تدخل شاعرنا في جانب لا بأس به من الأحداث المهمة ، لأنه كان يوجه المؤامرات الغرناطية ضد المرينيين والقشتاليين ، لا من فوق كرسيه في الوزارة فحسب ، وإنما في رحلاته ، عندما كان يقوم بالسفارة لبلاده من جانب ، وكان يتابع من جانب آخر ، الاحتفاء بكل الأحداث شعراً ، المهم منها والعادي ، وكانت تنعكس في قصائده أحياناً ملامح التدخل الغرناطي في الأراضي الأفريقية ، كسقوط مدينة سبتة عام ٧٨٦ هـ ( ١٣٨٤ م ) ، أو مساندة أبي العباس المستنصر ، عندما استرد عرش بني مرين عام ٧٨٩ هـ ( ١٣٨٧ م ) فمن ذلك قوله :<sup>(١)</sup>

هي نفحة هبت من الأنصار

أهدتك فتح ممالك الأمصار

في بشرها وبشارة الدنيا بها

مستمع الأسماع والأبصار

فتح الفتوح أذاك في حلال الرضا

بعجائب الأزمان والأعصار

الدولة من أصحاب المراتب الوظيفية العالية ، ويرد عليهم بطريقة خشنة قاسية ، وقد أشار المقرئ إلى ذلك بقوله : (١)

«وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة ، والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجليلة مع الاستغراق في غمار الفتن أندلساً وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبا» .

كل ذلك نشر حوله الحقد والحسد ، ثم جاء موت السلطان محمد الخامس ليزيد الأمور سوءاً ، وينتهي العصر الذهبي لابن زمرك ، وقد قام ابن زمرك برثاء السلطان المفقود بقصيدة ذكر فيها مناقبه وأخلاقه بقوله : (٢)

لئن غرب البدر المنير محمد  
لقد طلع البدر المكمل يوسف  
وإن ردّ سيف الملك صوتاً لغمد  
فقد سلّ من غمد الخلافة مرهف  
ولمّا قضى المولى الإمام محمد  
تحكّم في الناس الأسمى والتأسف  
فلا جفن إلا مرسل سحب دمه  
ولا قلب إلا بالجوى يتلهّف  
وقد كادت الدنيا تميد بأهلها  
وقد كادت البشّم الشواخ ترجف  
وقد كادت الأفلاك ترفضّ حسرة  
وكادت بها الأنوار تخفو وتكسف  
ولكن تلافي الله أمر عباده  
بوارثه والله بالناس أرف

لكن هذه القصيدة لم ترض الملك الشاب أبا الحجاج يوسف الثاني ، ولم ترض حساد ابن زمرك ، فزينوا للملك بأن الوزير الشاعر جعله دون الملك المفقود قيمة ومكانة . فأودعه السجن بعد أيام من وفاة السلطان محمد الخامس ، ومن سجنه أخذ يستعطف السلطان ويتمنى عليه النظر في حالته ، ومن ذلك قوله : (٣)

بما قد حزت من كرم الجلال  
بما أدركن من رتب الجلال  
بما خولت من دين ودنيا  
بما قد حزت من شرف المعالي

فتح الفتوح جنيت من أفنائه

ما شئت من نصر ومن أنصار  
كم من أمير أمّ بابك فائننى  
يدعى الخليفة دعوة الاكبار  
أعطيت أحمد (١) راية منصور  
بركاتها تسري من الأنصار  
أركبته في المنشآت كأنما  
جهّزته في وجهة لزار  
في كلّ خافقة الشراع مصفّق

منها الجناح تطير كلّ مزار  
لما قصدت بها مراسني سبتة  
عطف على الاسوار عطف سوار  
لا زالت للاسلام سترأ كلّما  
أمّ الحجيح البيت ذا الاستار  
وقد ترك لنا ابن زمرك وثيقة رسمية ، يوجز لنا بنفسه نشاط تلك الأيام الخصبة التي كانت في ظل السلطان محمد الخامس ونقلها المقرئ عنه . (٢)

«خدمته سبعاً وثلاثين سنة ، ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالأندلس انشدته فيها ستاً وستين قصيدة ، في ستة وستين عيداً ، وكل ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والدار والسبيكة من نظم رائق ، ومدج فائق في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي . وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج وهما كبيراً ملوك الأرض ، وهنائه بكذا وكذا قصيدة ، وفوّض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين ، (٣) وصلح النصارى عقدته تسع مرات» .

لكن الدهر لا يتيسم دوماً ، والسرور محكوم بعامل الزمن ، فلا يكاد يبدأ حتى ينتهي ، والحياة تتأرجح بين كَرّ وفَرّ . أخذ منها ابن زمرك كلّ ما استطاع بالقوة تارة وبالرضى تارة أخرى ، ولكنه في النهاية دفع الثمن باهظاً .

فجميعه ابن زمرك ومأساته :

كثر أعداء ابن زمرك في السنوات الأخيرة من حكم السلطان محمد الخامس «الغني بالله» . إذ كان يستخف برجال

١ — المراد باحمد : السلطان أحمد بن أبي سام المريني الذي فتح المغرب بنصرة السلطان محمد الخامس له .

٢ — نفح الطيب : ١٠ ، ٢٧ .

٣ — المقصود بالعدوتين : المنطقة التي تقع على طرفي مضيق جبل طارق في الجانبين العربي والإسباني ، حيث كانت توجد مجموعة إمارات عربية في الجانبين ، كإمارة مالقة ، والمرية ، والجزيرة الخضراء في الأندلس وإمارة سبتة ، وطنجة ، وتطوان في المغرب .

١ — أزهار الرياض : ٢ ، ١٨ .

٢ — أزهار الرياض : ٢ ، ١٤٩ .

٣ — أزهار الرياض : ٢ ، ١٥٧ .

بما أوليت من صنع جميل  
يطابق لفظه معنى الكمال  
تعمدني بفضلك واغفرها  
ذنوباً في الفعال وفي المقال

فرّق له قلب السلطان وأعاد اليه حريته بعد عشرين شهراً من السجن ، لكن الوزير الأول تابع سيرته السابقة وأظهر شراسة في لسانه، واعتزازاً بمكانه ، وقد ازداد ذلك بعد وفاة السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني عام ٧٩٤ هـ ( ١٣٩٢ م ) وقيام السلطان محمد السابع بالأمر مكانه ، فقدّم السلطان الجديد الفقيه أبا بكر محمد ابن عاصم لمدة وجيزة مكان ابن زمرك ، فأظلمت الدنيا في وجه هذا الأخير ، وأخذ ينظم تضرعات شعرية جديدة يظهر فيها ميله الشديد للاستعفاف ، وكان شاعرنا نفذ صبره كقوله :<sup>(١)</sup>

وما زلت أهدي المدح مسكاً مفتقراً  
فتحمّله الأرياح عاطرة الريا  
وقد أكثر العبد التشكّي وأنه  
وحقّق يا فخر الملوك قد استحيا  
وما الجود إلّا ميت غير أنّه  
إذا نفخت يمينك في روحه يحيا  
فمن شاء أن يدعو لدين محمد  
فيدعو لمولانا الخليفة بالبقيا

وكقوله يستعطف أيضاً :<sup>(٢)</sup>  
أتعطش أولادي وأنت غمامة  
تعم جميع الخلق بالنفع والسقيا  
وتظلم أوقاتي ووجهك نير  
تفيض بها الأنوار للدين والدنيا  
وجدك قد سمّاك ربك باسمه  
وأورثك الرحمن رتبته العليا

فأعاده السلطان محمد السابع الى وظيفته ومكانته السابقة ، بعد عام تقريباً ، ظناً منه بأن أخلاقه قد تحسنت ، وأن أحواله قد اصطلحت ، ولكن ذلك لم يغيّره في شيء ، فطبعه ازداد حدة ، وأخلاقه مالت الى الشك والريبة ، وقد رصد المقرّي تقلب أحوال هذا الرجل وسوء طالع بقلبه :<sup>(٣)</sup>

« وإذا به قد ساء مشهداً وغيباً ، وأوسع المضامير شكا وريبة ، وغلبت الإحن عليه وغلبت مراجلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغضى ويتبرّم بالقضا ، ويظهر النصيح وفي طيه التشفّي ،

١ - نفع الطيب : ١٠ ، ١٠٠ .

٢ - أزهار الرياض : ٢ ، ١٥٨ .

٣ - أزهار الرياض : ٢ ، ١٩٠ .

ويسم نفسه بالصلاح ، ويعلن بالخشوع ، ويشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو عليهم قوله تعالى : « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنباً لم يقتربوها ، ونسب إليهم نسباً من التضييع لم يعرفوها ... فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل على تفاوت أعداده على حاصل ... هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ، وعدم اضطلاع بالأمور الجبائية .

كيف نفسّر هذا التقلب الفجائي بين السخط والرضا ؟ لقد أفاض المقرّي في الحديث عن الصفات الرديئة التي أظهرها الوزير ابن زمرك في أيامه الأخيرة ، فأشار الى سفاهته وغلطته وشخصيته الجافية ، وخلقه الدساس ، وعجزه عن مباشرة مهام منصبه ، وقلة اهتمامه بالمسائل الاقتصادية ، إلى غير ذلك ، وإذا أضفنا الى هذه الصفات ملل الجماهير من شيخوخة ابن زمرك ، ورغبة الأجيال الجديدة في الترقّي الى أعلى المناصب الإدارية وتغيّر الاتجاه مع كل ملك جديد ، يضاف الى ذلك كله ظلّ لسان الدين بن الخطيب الضحية ، وما رافق ذلك من أخلاق العصر وخصائصه ، هذه الأمور كلها جعلت النهاية الدامية تقترب مسرعة ، وقد أحس الرجل بذلك فأخذ يدعو الله أن يجعل بنكبته كقوله :<sup>(١)</sup>

« ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعد ، وأن يقبض الله له ولهم قاتل عمد » وكان القدر استجاب لنداء هذا البائس ، ووضع الخاتمة للفصل الأخير من حياة شاعر الحمراء ووزيرها الأول لوقت طويل . فذات ليلة اقتحم حرس السلطان محمد السابع دار ابن زمرك وهو يقرأ القرآن مع ابنه وخدامه ، فاعتيلوا جميعاً على مرأى من أهله وبناته على نحو يثير فينا الرعب والهلع ، لكن تاريخ هذه الحادثة الفظيعة غير معروف تماماً ، وعلى أية حال ، يجب ان تكون بعد عودته إلى الوزارة بزمان غير طويل ، حوالي عام ٧٩٥ هـ ( ١٣٩٣ م ) .

« وأما كونه سعى في قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله وقتل بمرأى من أهله ومسمع ، وأزهقت معه روح ابنه ، وهذا قصاص الدنيا ... » .

وهكذا نلاحظ أن حياة الشاعر ابن زمرك على اختلاف مراحلها ، وتعدد أحداثها الخاصة والعامة ، تشابه ، الى حد بعيد ، أحداث العصر الغرناطي في تلك المرحلة بما حوته من اضطراب سياسي واجتماعي ، وبما أفرزته من تشابك في العلاقات الإنسانية التي يصعب على الدارس أن يحددها بدقة .

١ - أزهار الرياض : ٢ ، ٢٠ .

٢ - نفع الطيب : ١٠ ، ٢٢ .

## المراجع

- أزهار الرياض : للمقرّي التلمساني ، ( القاهرة سنة ١٩٤٠ ) .
- الأحاطة في أخبار غرناطة : للسان الدين بن الخطيب ، ( القاهرة سنة ١٩٥٥ ) .
- الادب الاندلسي من الفتح حتى السقوط : للدكتور أحمد هيكل ( القاهرة سنة ١٩٦٧ ) .
- تاريخ الادب الاندلسي : للدكتور احسان عباس ، ( القاهرة سنة ١٩٧١ ) .
- تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن خلدون ، ( القاهرة ؟ )
- الثقافة الاسلامية وأثرها في النهضة الأوربية : لمحمد فائز القصري ، ( دمشق سنة ١٩٧٩ ) .
- حسان بن ثابت : للدكتور إحسان النص (١٩٦٥) .
- الحضارة الإسلامية في الأندلس : لعبد الرحمن الحجي ، ( بيروت سنة ١٩٦٩ ) .
- دراسات أندلسية : للدكتور الطاهر أحمد المكي ، ( القاهرة سنة ١٩٨٠ ) .
- الطبيعة في شعر الأندلس : للدكتور جودت الركابي ، ( دمشق سنة ١٩٧٠ ) .